مضاض ومى

الحارث بن مضـــاض الجرهمى أسطورة عاشت ثلاثمئة عام ، مائة منها ملكا على مكة وباقى عمره تائها ضائعا يجول هنا وهناك بلا هدف فيما يشبه أسطورة اليهودى التـــائه . ولن أحدثك عنه هنا وانما أنا أريد أن أحدثك عن قصة حكاها هو لأياد بن نزار بن معد بن عدنان ، وحكاها أياد ليقص قصة الثروة التى جاءت اليه .. والقصة طويلة تبدأ حين يلتقى أياد بالجرهمى التائه ويظلان فى جولاتهم ، والجرهمي يقص له قصة كل مكان يصلان اليه ويحكى له حكايته ولماذا سمى بما يحمل من اسم .. وهو فى خلال هذا يورد مجموعة من أجمل الأساطير وارقها واكثرها شاعرية وجمالا ، بل ومن أكثرها دلالة على عقلية الشعب العربى وفهمه للحياة والمثل والسلوك .. الى أن يصلا فى رحلتهما الى مكان اسمه موطن الموت ، وهنا يسأل الجرهمى صاحبه أيدرى سر تسمية هذا الموضع بموطن الموت فيقول صاحبه : لا .. فيبدأ الجرهمى حكاية جديدة أحب أن أوردها لك محتفظا بلغة راويها وهب بن منبه مختصرا منهـــا بعض الشىء ، وهى بعد فى صفحة ١٨٨ من طبعة حيدر أباد لكتاب التيجان ..

* * *

قال الجرهمى : نعم يا بنى انه لما شب مضاض ابن أخى عمرو الملك ، لم يكن بمكة ولا ما والاها أجمل منه .. وكان من بنات عمه من بيت الملك جارية تسمى (ميا) بنت مهليل بن عامر ، وكانت معه فى نسق واحد ، وكانت أجمل من رأته العيون .. ففتن بها وفتنت به ، وشب معها وشبت معه فى حى واحد ، وصان مئزره عنها .. فلما بلغ بهما الهوى مبلغه وحذرا من الفضيحة أو السقم أو الموت بعثا الى فشكوا ما نزل بهما من شوق بعضهما الى بعض ، فأرسلت الى مهليل وأعلمته ما كان منهما .. فقال لى : أيها الملك أنت وليهما افعل بهما برأيك وزوجها منه ..

قال الجرهمى: وقد هجم علينا الشهر الاصم (رجب) وكنا لا نحدث فيه حدثا غير العمرة والطواف حتى ينسلخ ، قلت له يا مهليل : ينصرف رجب وافعل ..

واعتمر مضاض وطاف ، وبلغ ذلك (ميا) فأقبلت تعتمر وتطوف متنكرة غيرة على مضاض ، ومضاض لا يعلم بمكانها.. وكان قبيس بن سراج من رهط حقير فى جرهم قد رأى (ميا) فهويها وهى لا تعلم ، ومضاض لا يعلم ، وكان قبيس يراعى أحوال مى ، فلما بلغه أنها اعتمرت خرج الى الطواف ليقضى لبانته من النظر اليها.. فكانت مى تطوف وتراعى أحوال مضاض ومضاض لا يعلم بذلك ، وكان قبيس يطوف فى اثر مى ومى لا تعلم بذلك ..

وكانت رقية بنت البهلول الجرهمى تطوف واليوم قائظ ، فعطشت عطشا خافت منه على نفسها الموت ، واحتشمت ان تقف لأهل السقاية وسدنة البيت من جرهم .. فلما ابصرت مضاضا نادت به لشبيته ، فقالت يا مضاض اسقنى جرعة من ماء فانى اخشى ان أموت ظمأ . فناولها ، فرأته مى حين ناول رقية الماء ، فاشتعل قلبها غيرة فسقطت مغشيا عليها وجعلت ترعد لا تدرى ما هى فيه ، ونظر اليهـا الحجيج فقيـل لهم مرضت ..

ثم ادركت ميا نفسها فقامت فلم تستطع الطواف وولت الى منزلها .. وكان منزل ابيها مهليل فى سفح جبل مكة فأتت اباهافقال لها : ما الحجج يا بنية افترق..فقالت له : لم يفترق الحجيج يا ابه ، ولكن الموت لا يكتم واليك شكواى واستعانتى لأنك عمـادى ورجائى .. قال : فما لك يا بنية .. قالت : انصدع قلبى صدعا لن يلتئم بعدها صدعة .. قالت : يا ابه ان مضاضا ابن عمى دعا قلبى فأجابه ، فلما اجابه قذف الهوى خلف النوى .. قالت له : رأيتـه يلاحظ رقية بنت البهلول ، وسقاها ماء ففارق روحى جسمى اسرع من طرفة عين ، ثم تداركت امرى ، ورايت انه بدلّ حسبا بحسب ، وخطرا بخطر، ولم يبلغ والله خطر البهلول مهليل بن عامر ، ولا رقيـة بنت البهلول ميا بنت مهليل بن عامر .. قال لها ابوها : صدقت ، لا ورب الكعبة ما يكون ذلك .. قالت له : يا ابه لن والله اقيم بموضع يكون فيـه مضاض بن عمرو ابدا ، وانى راحلة الى

اخوالى جسر بن قين .. فقال لها : لك ذلك يا بنية ، وانشأت تقـــول :

مضاض غدرت الحب والحب صـــادق
وللحب ســـلطان يعز اقتـــداره
غدرت ولم اغـــدر وللعهـــد موثق
وليس فـــتى من لا يقـــر قـــراره
ابيت اقاسى النجم والليل دامس
وللنـــجم قطب لا يدور مـــداره
اذا غاب لم أشـــهد وكان محله
محلى وداري حيثمـــا كان داره
اذا هاج ما عنـــدى لأول غيرة
علاه اشتعال ما يطاق اســـتعاره

قال فىجرهمى : واتاها قبيس بن سراج وانشأ يبس لها اخبارا ليفرق بينها وبين مضاض .. وقال لها : يامى رأيت عجبا .. قالت : ما هو ؟ قال لها : رأيت مضاضا واضعا كفيه على قرون رقية بنت البهلول فى الطواف ، وهو يدافع عنها اهل الطواف سانحا وبارحا ، ثم استسقته ماء فناولها بيده فشربت وناولته ، فأنشأ مضاض يقـــول .. قالت : وما الـــذى قال يا قبيس ؟ قال لها :

رقيـــة قلبى قد تبـــاين صـــدعة
وللحب منى شـــاهد ودليـــل

رأيت الهوى يهـوى وللوصول واصل
فهـل لك أن يلقى الخليل خليـل

قال : فأجابته رقية فقالت :

أصـون الهـوى والطـرف منى كاتم
ولا يعلمون الناس اذ ذاك ما دائى
سـوى اننى قـد فزت منـك بنظرة
تجرعت عذب الحب منـه مع الماء

فالتمستها حمية قول قبيس وجعلت تقبل بين خيام الحى مرة وتدبر أخرى وهى لا تعلم ما هى فيه .. ثم قالت لابيها : نذرت لله نذرا يا أبه لنرحلن غدا .. قال لها أبوها : نعم ..

قال الجرهمى : وان رجلا من أهل الحى بلغ مضاضا فأعلمه بما قال قبيس وبما قالت مى ، فركب فرسه وأخذ سيفه وخرج يريد قتل قبيس .. وأنذر قبيس فخرج هاربا فى البيداء ، فما أدرى أى أرض انطوت عليه الى يومنا هذا ..

فلما لم يجد مضاض منقبيس أثرا وأعجزه هربا رجع الى مى وأصاب أهل الحى يحتملون ، وأصاب ميا راكبة على نجيب فى هودجها فقصدها وقال : يا مى اعيذك بالله أن تغدرى من لم يغدرك ، وهذا موقفى بين يديك فجودى لمن لم يجترم جرما :

يعشى عن الناس لحظ طرفى وعنـك يامى غير عاشى
اتهـجرينى بغـير ذنب وتقتـلينى بقـول واشى

فولت عنه وعيناه تغرورقان دموعا ، وتجهمته وزحفت غضبى ونمادى الحى للرحلة ، وافترق الحى من سفح الجبل ..

قال الجرهمى : فمضى حتى أتى مكة فغلب عليه الهوى ، ورجا منها عطفا ، فتعرض لها قائلا :

علام قبست النار يا أم غالب
بنار قبيس حين هاجتك ناره
على كبد حرى وانت عليمة
بغيب رفيق لا يبين ضماره
سألتك بالرحمن لا تجمعى هوى
عليه وهجرانا وحبك جاره
فان لم يكن وصل فلفظ مكانه
اليه والا موطن الموت داره

فولت عنه وتجهمته وقالت له : والله لا القاك بها ابدا .. فولى الى صاحبيه وهما أبناء عمه وقال : والله لا اشرب بعدها ماء ابدا .. وولى وانف ان يدخل مكة ، ومضى معه صاحباه يستعطفانه على شرب الماء فأبى لهما ، فجال حتى غلب عليه العطش ، وانصدع قلبه فى صدره لما خامره اليأس ، حتى بلغ هذا الموضع فغشيه الموت ، فأناخ ناقته واخذ ابن عمه رأسه وجعله فى حجرة وقال له : قصفك الدهر يا مضاض .. ففتح عينيه وقال : قصفنى قبيس ..

قال الجرهمى : ثم مات ، وقفلت انا من غزواتى فأصبته ميتا ، فحفرت له ضريحا فى هذه الصخرة ..

اما مى فقد لقيت رقية بنت البهلول ، فقالت لها رقية : يا مى ، ما كان من شأنك ومضاض .. ؟ فأعلمتها ، فقالت لها : ظملتيه يا مى ، بالله ما كان بينى وبينه قط سبب ، ولا كلمته غير استسقائى منه المـــاء ، ثم ما رأيته بعـــدها الى يومى هذا ..

قالت لها مى : فهل كان منك اليه شعر ، ومنه اليك شـــعر ؟ قالت لهـــا : والله ما كان بينى وبينه كلمة غيـــر استسقائى الماء اياه .. واتاها من علم امر قبيس وما دس بينهما فندمت وبعثت اليه فلم تجده ، وتعاظم شوقها لما علمت من كلفه بها وبراءته..

فبينما هى تسأل من لقيه اذ نعى اليها فتوارت عن الحى ، وتبعتها جارية من بنات عمها كانت مؤانســـة لها مطلعـــة على اسرارها ، فوجدتها ساكتة تنظر يمينا وشمالا كأنها جنت .. قالت لها : يا مى اراك هبلاء وقد مات مضاض .. قالت لها : قسوة ادركتنى منعتنى الدمع ، وفى الدمع راحة لو اصبت اليه سبيلا .. فلما سمعت نساء الحى ينتحبن وعلت اصواتهن اجابها الدمع . فبكت وانشأت تقول :

ايا موطن المـــوت الذى فيـــه قـــبره
سقتك الغـــوادى الساريات الهوامع

ويا ســـاكنا بالدوحتـــين مغيبـــا
لان طـــرت عن الف فالفـــك تابع

قال الجرهمى : وآلت على نفســـها أن لا تشرب ماء ، فأقامت يومين وليلتين ، فلما كان اليوم الثالث ولا احد يعلم بها غير سلمى غشيها الموت مع الليل ، فولت الى الربوة واتبعتها

سلمى ، فلما بلغت أعلى الربوة سقطت .. قالت سلمى : فوضعت يدى على فمها فوجدته كالحجر الصالد ، فرفعت راسها الى بلسان غليظ ، وصوت خفى ، فقالت بكلام ضعيف لا اكاد ابينه : (قولى لابى يدفننى بالدوحتين بجوار مضاض) ..

* * *

احسب أن قصة (مضاض ومى) التى نقلتها اليك من كتاب وهب بن منبه تقف كالسؤال الحائر أمام الذين زعموا أن العربى لم يعرف من صور الحب الا حب المادة المجسدة ، وانه لم يعرف من المراة الا مواضع الاثارة الجنسية فيها دون ماتعلق بالمراة كروح ملهم ، ولا بها كرمز جميل عفيف ..

واحسب أن الذين أخذوا من الشعر الجاهلى ، أو بمعنى أصح ما جاءهم من هذا الشعر ، صورة المراة فى الجاهلية يحتاجون الى قليل من النظر فى هذم القصة وأمثالها ليدركوا أن ثمة صورة خادعة لا تمثل الحقيقة قد رسبت فى أذهانهم ..

واحسب أنهم لو قرنوا هذم القصة التى تأتى من عصر جاهلى سحيق بقصص متأخرة كقيس وليلى ، وقيس ولبنى ، بل لو قرنوها بقصص جاءت بعدها فى الزمن حتى دخلت فى قلب العصر الأموى كقصة جميل وقصة كثير ، لأدركوا أن مايعرفونه عن حب العربى للمراة لا يمثل الا جانبا واحدا من جوانب عاطفة العربى ، ولأحسوا أن الجاهلى الذى نظروا اليه نظرتهم الى بدوى جاهل خشن اقرب الى التوحش ، هو وحده لا يمثل الا جانبا واحدامن حياة العصر ، وأن هناك جانبا آخر أهملوه حتى

وهم يرون صوره واضحة جلية فى تلك المثل الرائعة من الحب العفيف والهوى الخلاق الذى يصل الى درجة من الرفعة والسمو قل ان نجد نظيرها فى غير اكثر الامم عراقة واصالة فى دنيا الابداع الفنى والخلق الادبى ..

وقصة (مضاض ومى) بعد هذا كله ، صورة انسانية نابضة بالحياة فى معظم الآداب العالمية فأنت تراها فى (روميو وجولييت) وانت تراها فى (بول وفرجينى) .. اعنى انك ترى الخصائص العامة المشتركة موجودة فى كل الآداب العالمية ، ولكنك هنا لن تخطىء الخصائص العربية تتحكم فى اسلوب القصة وشخصيات ابطالها وطريقة سير الاحداث فيها .. فالأمور فى هذه القصة تسير فى وضح النهار ، فى شجاعة وقوة لا تكاد تجدها فى مثيلاتها .. فحينما يبلغ الهوى بالحبيبين مبلغه يذهبان من فورهما الى الملك حيث يقصان عليه قصة هواهما فى صراحة وجراة .. والملك يرسل الى ابى الفتاة يسأله رايه ، ويستقر الراى عند الجميع على زواج الحبيبين كحل سعيد سليم .. فليس ثمة خفاء ولا استتار ، وليس ثمة خوف او ظلام وانما وضوح تبرره عفة الحب وعذريته ..

وحينما تدخل المصادفة لتلعب دورها فى القصة لتحول من مجراها ، تنبنى هذه المصادفة على اسس من ظروف المجتمع العربى ومعتقداته ومثله . فشهر رجب او الشهر الاصم يقبل ، والعرب لا يعرفون فيه غير العمرة والطواف .. وهكذا يتأجل

الزواج أولا ، ثم تحدث القطيعة ثانيا .. فلا مجال لمى كى ترى حبيبها الا أن تراه وهو يطوف ، وتخرج اليه فى الطواف ترقبه من بعيد ، وتقبل فتاة أخرى تطوف فتعطش وتطلب منه أن يسقيها ، وتغار مى ويغشى عليها .. فالمصادفة اذن ليست عفوية وانما هى مصادفة تتحكم فيها ارادة اخرى ، لعلها ارادة الآلهة الذين جعلوا من رجب شهرا أصم ، ولعلها ارادة القدر أو القوة الكبرى التى تدخلت لحظة اتفقت ارادة البشر على اسعاد الحبيبين .. فحين اتفق الجميع على نهاية سعيدة لقصة الحب يحل فجأة شهر رجب كالقدر ليمنع هذا الزواج شهرا كاملا ، يترك فيه الحبيبين تحت رحمته تماما ، وتحت رحمة قوى الشر تفرق بينهما ..

وليس من عجب اثناء الطواف أن تعطش (رقية) ، ثم ليس من عجب لعربية من اسرة اسياد مكة أن تحتشم أن تقف لأهل السقاية وسدنة البيت ، ثم ليس من عجب حين ترى (مضاضا) يطوف أن تسأله جرعة ماء ، فهو صغير وهو من بيت كبير ، ثم هو آخر الامر أحد أفراد هذه الاسرة السيدة . وقد يمر كل هذا فى سهولة ويسر دون أن يخلف أثره عند (مى) لولا أنك تعلم من كثير من القصص ، بل ومن بعض الشعر ، أن الطواف كان عند الكثيرين من شباب الجاهلية مجال لقيا المحبين ومناجاتهم من بعيد ، فلا عجب اذن أن تغار (مى) وأن تسقط مغشيا عليها وقد أصاب قلبها سهم الغيرة .. فالمصادفة هنا ليست عفوية وانما هى تكاد تبنى على أسس سليمة من واقع حياتهم

ومعتقداتهم ، والارادة التى تدخلت هنا لتبدأ عهد القطيعة بين الحبيبين وترسم الفاجعة التى ستنهى قصتهما لها ارتباط كبير بآلهة العرب وتقاليدهم الدينيـــة .. وكما تدخلت هذه التقاليد العربية فى رسم اطار الفاجعـــة فهمى تتدخل كذلك فى دوافعها وتطورها ، فغيرة (مى) ليست غيرة محبة على حبيبها وحسب، وانما هى غيرة عربية من عربية مثلها ، غيرة لها علاقة بالأحساب والأنساب .. واسمعها تحكى لأبيها القصة فتقول له (يا ابه ان مضاضا ابن عمى دعا قلبى فأجابه فلمـــا اجابه قذف الهوى خلف النوى ، رأيته يلاحظ رقية بنت البهلول وسقاها ماء ففارق روحى جســـمى بأسرع من طرفة عين ، ثم تداركت أمرى ، ورأيت أنه بدل حسبا بحسب وخطرا بخطر ، ولم يبلغ والله خطر البهلول مهليل بن عامر ، ولا رقية بنت البهلول ميا بنت مهليل بن عامر ..)

فالمسألة لا تقتصر على حب وغيرة ، وانما هى تتعداها الى مفاضلة بين الأنساب .. ومى حين تغار تســـتدعى فى الحال عصبيتها الجاهلية ، وتعقد المقـــارنة بين مكانها ومكان رقية ، وبين مكان ابيها ومكان ابى رقية .. وبهذا تصبح غضبتها غضبة محبة مهجورة ، وغضبة عربية تتعصب لحسبها ، وتحسب أن مكانها فى المجتمع العربى قد اهين حين فضل حبيبها عليها فتاة أخرى تعدلها حسبا ونسبا ..

وهكذا تتجمع العوامل ،بعضها ينبعث من طبيعتها كانسانة تحب وتغار ، وبعضـــها ينبعث من طبيعتها كعربيـــة تثـــور

لكرامتها وتغضب لمكانها وخطرها .. ثم يأتى العامل الثالث الذى يذكى النار ويصل بالفاجعة الى قمتهـــا ، ذلك هو الحقد الذى ينفث سمومه ، فطبيعى أن فتاة كمى لها أكثر من عاشق يحبها دون أمل ، ومن الطبيعى أيضا أن يكون أحد هؤلاء العشـــاق (قبيسا) الذى هو من رهط حقير فى جرهم يتسلل وراء (مى) فى الطواف يسعى عـــله يراها ، فرأى ما حدث كله ، واستغل حقده وضعته لينسج قصة وهمية يدخلها على (مى) لتزيد من نار الغيرة ، وتشعل لهيب الغضب .. فهو يدس عليها حكاية حب موهوم ، بل هـــو يدس عليها شـــعرا غزلا يتبادله حبيبها (مضاض) مع (رقية) هذه التى سقاها فى الطواف .. وكانت (مى) كما رأينا فى حالة نفسية تساعدها على تقبل كل ما يقال لها .. وهكذا يصل الأمر الى نهايته ، وتغضب الغضبة الكبرى التى تعزم بعدها على الرحيل بعيدا عن مكة وعن جوار مضاض، وهكذا أيضا يغضب لها أبوها فيحزم الرحال مغادرا المكان الذى أهينت فيه ابنته ..

وحين يبلغ الأمر حبيبها مضاض يركب فرسه ويأخذ سيفه يريد قتل قبيس ولكن قبيس يهرب فما يبين . والقصة لا تلحق به عقابا ، فهو واحد من أدوات ، وليس أخطر الادوات التى استعملها القدر ليفرق بين الحبيبين .. وهما ــ على أى حال ــ لا يواجهان هذه القوة التى تحيك حولهما المأساة بقوة مادية ، وانما هى أشياء تتعلق بنفسيهما وما انطوتا عليه من حب ..

ويلقى (مضاض) (ميا) ويحاول ان يفهم الحكاية ، وان يفسر موقفه ، ولكنها لا تسمع .. بل « زحفت غضبى وتمادى الحى للرحلة ومضوا وافترق الحى من سفح الجبل » .. وهنا تشهد صورة عربية نلمحها تتردد فى الشعر الجاهلى بصفة خاصة ، فمضاض يغير زيه ويركب ناقته فيتبعه خليلان من بنى عمه ركبا فى اثره حتى لحقاه فقالا له « يا مضاض خلعت تاج الملك لطلاب الهوى » ، قال لهما غلب الهلع التجلد والجزع الصبر ، والهوى حاكم والقلب محكوم عليه » فسارا وراءه يستمعان شعره معا ، ويرقبانه وهو يلحق بركب (مى) ، ويتعرض لركبها محاولا أن يثنيها عن رحلتها فيفشل مرة أخرى .. والخليلان هنا صورة من صور المجتمع العربى ، أو هما صورة من صور شباب هذا المجتمع . ونحن نلمح وجودهما فى مطلع معظم القصائد الجاهلية اذ يخاطبهما الشاعر دائما يشكو لهما الهوى والبين والفراق . وربما نبعث فكرة الخليلين هذه من هذه الاسطورة بالذات ، وربما كانت شيئا طبيعيا فى حياة الشباب العربى كلما قلنا .. على أية حال يرافقه خليلاه هذان وهو يقسم أن لا يشرب بعدها ماء ابدا ثم يرقبان موته ويأخذ احدهما رأسه فى حجرة حين يموت ، وهما بعد ينقلان ما قال من شعر ، وما همس به ساعة مات ..

ونقف وقفة طويلة عند هذه الوسيلة التى اختارها للموت أعنى العطش .. واختيار هذه الوسيلة أولا يتفق مع طبيعة البيئة العربية الصحراوية اتفاقا تاما ، ويكاد يبلغ الصدق الفنى فى هذه

القصة ذروته عندما يجعل العطش المحور الرئيسى فى الفاجعة .. فالعطش هو الذى جعل (رقيـــة) تطلب المـــاء من (مضاض) فتراهما (مى) ، والعطش هو العقاب الذى فرضه (مضاض) على نفسه ، وحين تعود (مى) وتعرف أنها كانت واهمة فيما بلغها عن (مضاض) وأنها تجنت عليه وظلمته فهى لا تختار الا (العطش) لتموت نفس ميتته ، وتدفن فى نفس مكانه ..

والماء يلعب فى حياة العربى دوره الحقيقى ودوره الرمزى.. فهو حقيقة ملموسة تعيد اليه الحياة حين تطول به الرحلة وينضب ما معه من ماء ، ثم يوشك على الهلاك وسط الصحراء القائظة الجرداء . وهو رمز للأمان وبلوغ الهدف حين تنتهى به الرحلة الى واحة ، أو قرية ، أو مضرب خيام ، يجد عنده حاجته من الماء ، ويجد عنده حاجته من الامان ، ويحقق عنـــده هدفه من رحلته .. بل ان حياة العربى البدوى كلها رحلة من اجل الماء ، يعيش هو عليه ، ويجد عنده الكلأ لماشيته ترعاه .. وهو حين يجده يستقر به المطاف ويحط عنده الرحل ، الى أن ينضب ، فهو يقوض خيامه ويقود أغنامه بحثا عن ماء جديد .. فالماء عنـــد العربى رمز لأشياء كثيرة . وهو فى هـــذه القصـــة بالذات رمز للأمل الذى تحطمت عند صخرته حياة حبيبين ، صنع لهما القدر وطبيعة الحياة العربية وتقاليدها هذه النهاية الفاجعة . وحين يموت مضاض عطشا انما يرمز الى ما أخفق فيه من بلوغ أمله وهدفه ، وحين تموت (مى) عطشا انما تشير الى ما ملأ حياتها من جدب وخيبة واخفاق .

فالقـــدر العربى الذى جعـــل من رجب شهرا أصم بدا الفـــاجعة ، والطبيعة العربية التى جعلت من العطش فاجعة تحطم حياة العربى أنهت القصة .. وبينهما يقف الانسان العربى شهيدا لا يملك الا الحب والوفاء .. ومأساة العربى هنا فى بحثه عن الأمان ، وبحثه عن الاستقرار ، وبحثه عن الحب تتضح فى جلاء لا تحجبه التفاصـــيل ، ولا يخفيه ما يدور على السنة أبطال هذه المأساة من شعر أو حوار ..

أما شخصيات القصة فنماذج بشرية تلعب بها يد القدر ، ولكنها أيضا نماذج عربية لها سماتها الخاصة وتقاليدها التى تتحكم فى حياتها .. (فمى) الفتاة التى تحب فى عفة ، وتواجه حبها فى شـــجاعة وصراحة يصل بها الحب الى حد أن تخرج فى الطواف ترقب حبيبها من بعيد ، تمتع برؤيته عينيها وقلبها ؛ فترسم بذلك صـــورة من الحب الجارف العنيف الذى لا يعرف الصبر والاناة . ولكنها حين تصطدم بوهم الخيانة ، فتاة عزيزة لا تعرف أمام عزتها شيئا حتى ولا الحب ، يغشى عليها وسط الحجيج ، ثم هى راحلة لا شك عن المكان الذى أهينت فيـــه كرامتها ، ثم هى معرضة عن توسلات حبيبها وشعره وأفكاره ، هى قوية كل القوة حين تحس أن كرامتها فى الميزان ، وكرامتها عنـــدها ترجح كل شىء حتى الحب .. ثم تنزاح الغشاوة عن عينيها فاذا هى ضعيفة كل الضعف أمام حبها ، اذا هى تسعى الى مكة ، فما تسمع خبر وفاة حبيبها حتى تهرب الدموع من

عينيها أثر الصدمة القاسية .. ثم هى أمام حبها تضحى بكل شىء حتى بحياتها ، وهناك الى جوار قبر حبيبها تموت عطشى ، كما مات فى عزة واصرار ووفاء ..

هذه الصورة لمى كما ترى تختلط فيها عواطف المرأة بتقاليد العربية اختلاطا كبيرا يحقق لها أصالة وبقاء ، وصدقا فنيا حقيقيا .. وما قلناه عن (مى) نقوله عن (مضاض) فهو محب عفيف يصون مئزره عن حبيبته ويسرع بخبر حبه الى الملك ، ثم هو يخضع لتقاليد العرب فينتظر انصرام شهر رجب ، فاذا ما علم بأمر قبيس أخذ سيفه ليقتله فى عزم العربى وغضبته ، وفى فتوة وفروسية صادقة ، ولكنه أمام مى محب متخاذل ، يتبعها باكيا نائحا ، يحكى لها قصة وفائه ، وتأبى أن تسمع اليه ، فيأبى عليه شرفه وتأبى عليه أنفته ، الا ان يثبت لها صدقه ، والثمن هو حياته نفسها ..

ومن هذه القصة تستطيع اذن أن تخرج بصورة متكاملة للخلق العربى والتقاليد العربية لعلها تختلف الى حد كبير عما أصر عليه الدارسون من صورة مشوهة باهتة ..

ونظرة الى حوار القصة وما جاء فيها من شعر تبرهن لك فى وضوح ان لغة الجاهليين لم تكن سجعا وقعقعة واغرابا .. ستقول ان هذه القصة دونت فى عصر متأخر عن حدوثها المفروض ، واقول لك انها دونت فى العصر الاموى على أرجح الفروض ، فكاتبها نفسه قد مات فى عام ١١٠ هـ كما تعلم ..

فعصر التدوين قريب جـدا من العصر الجاهلى ، ولغتـه تكاد تكون أقرب الى اللغة الجاهلية من لغة المتأخرين الذين رووا الشعر الجاهلى والخطابة الجاهلية .. ولست أزعم أن هـذه اللغة هى لغة العرب فى الجاهلية ، وانما أزعم انه كانت هناك لغتان ، احداهما عرفها محترفوا الكتابة من أصحاب السجع والغريب ، والثانية هى هذه اللغة السهلة العذبة الشعرية التى عرفها أصحاب القصة .. وأزعم أن هذه اللغة هى اللغة الأقرب الى أن تكون هى لغة الاستعمال المتداولة ، أما هـذه الصورة اللغوية الغريبة التى ينقلها الينا الشعر أو تنقلها الينا الخطب وسجع الكهان ، فأحسب أنها لغـة مصنوعة متكلفة يتعمدها أصحابها تعمدا ، ويقصدون اليها قصدا ، فغدت علما على مجالات استعمالها . وان كانت ولا شك ليست لغة الحياة العادية . كما أنها ليست بالتالى المظهر الفنى لهذه اللغة ، لأن هذا المظهـر الفنى يتضح فى هذه القصة وغيرها . وانما هى أقرب الى أن تسمى بالمظهر الصناعى المحبر لهذه اللغـة ، وفرق بين الفن والصناعة ..

وبعد فأحسب أن قصة مضاض ومى لم تنقل الينا فى كتاب التيجان كاملة ، بل أحسب انها اختصرت اختصارا ، فأنت تلمح فيها مواضع كثيرة للحوار تروى رواية ، بينما ترى من سرده أنه استعمل الحوار فى أكثر من موضع ، وسأورد بك الى جـزء من رواية وهب للقصة فهو يقول :

(قال أبوها : فمالك يا بنية ؟ قالت له : انصدع قلبى صدعا لن يلتئم بعدها صدعة ، قالت يا أبة ان مضاضا ابن عمى دعا قلبى فأجابه ، فلما أجابه قذف الهوى خلف النوى ، قالت له : رايته يلاحظ رقية بنت البهلول وسقاها ماء ، ففارق روحى جسمى أسرع من طرفة عير) .

فأنت تراه هنا يذكر نصف الحوار دون أن يورد نصفه الآخر ، ولا ريب أن القصة الكاملة يتكامل فيها الحوار ، وتحكى ردود أبيها عليها كاملة .. ولعلك تعلم أنه لم يقصد الى ايراد هذه القصة قصدا،وانما هو حكاها وسط حكايته عن الحارث بن مضاض الجرهمى وغربته الطويلة .. والواقع أن جزء كبيرا من حبكة هذه القصة الفنية يعود الى الراوى نفسه ، فأنراوى روح هائمة فى الجزيرة تسير فى طريقها الى الموت بعد غربة ثلاثمئة عام .. فالجو العام الذى تسرد فيه القصة كله قتام يوحى بهذه النهاية الفاجعة ، بل كله يرمز الى هذا الذى حاولنا أن نستخرجه من مصرع العاشقين بالعطش ، يرمز الى الضياع .. فكأنما قصة مضاض ومى تكملة طبيعية لقصة الحارث الذى ضاع فى عمره الطويل بين جبال الجزيرة وفلواتها الى أن يلتقى بإياد بن نزار وهو يعود بابله الى مكة فيحمله فى رحلة النهاية ، رحلته الى القبر الذى سيدخله باختياره ، لأن أجله قد حان ، ثم يموت .. وفى الطريق يمر على جبل أبى قبيس وموطن الموت ، فيشرح لإياد قصة هذه الأسماء التى أطلقت على هذه المواضع فتكون قصة مضاض ومى ..